بالتقسيط !

قصة جديدة بقلم نهاد الغادري

اعتمد على الطاولة بمرفقيه ، وقد تقبض وجهه واربدّ ، وأراح رأسه الكئيب المتعب بين كفيه ، مثقلاً بالخواطر كزهرة شاخت على غصنها الظامىء ، في ثراها الجديد .

لم يكن الانذار مفاجئاً بالنسبة اليه ، فقد كان مستعداً له بسبق التوقع ، متوجساً منه ؛ ولكن أمد التسويف قد انقضى ولم يبق ثمة مجال لمماطلة جديدة ، ووعد جديد ، فما العمل ؟!

لقد حلت اللحظة الحاسمة ، وليس بعد انقضاء مهلة الانذار سوى الحجز ، فالدعوى ، فالجرجرة إلى المحاكم ، وهو ما يعتبره فضيحة ومهانة !

صحيح ان الحاكم صديقه ، ولكن هذا ما يزيد المشكلة تعقيداً ، فليس بجانبه متكأ حقٍ ، وهو بعد ليس مستعداً لأن يكذب فيخلق باباً لتأجيل الدعوى ومطها والأخذ والرد بها ، ولقد يربحها في النهاية ، كما يربح كثير من الناس دعاوى باطلة ، ولكنه يخسر نفسه ، يخسر كرامته ، يخسر كل ما جاهد لفهمه والايمان به من مثل وقيم !

ما العمل إذن ؟

ما الحل ؟

ودار رأسه ، واستسلم لخواطره ، فأرخى لها تجوب آفاق ماضيه ، مستعرضة ما أثاره هذا الانذار بين يديه :

نزل الى الحياة دون ان يتزود بسلاحها ، السلاح الذي تعترف به الدولة ، ويقره المجتمع ، فقد كان نظيف الرأس من كل سخافات المدرسة وتفاهاتها ! ولم يكن يحمل شهادة عليا ، ولا سفلى ، فقد ترك الدراسة قبل ان ينهي المتوسط منها ، وانصرف الى الحياة يجاهد أثقالها ويحمل أعباءها بكاهل رجل ، وهو لما يقطع السابعة عشرة من سني حياته .

ولكن حظه من الثقافة كان وفيراً بالقياس إلى حملة الشهادات العليا منها ، ولم يكن يرى فيهم — دون اطّراد لهذا الرأي فقد يشذ عنه ذو موهبة — الا مجموعة من السخفاء فصلتهم المدرسة على قياس واحد ، أو أقيسة متشابهة ، كما يفصل الخياط بذل التعهد ، وقذفتهم الى الحياة ليفسدوها ، أو ليزيدوا من فسادها فان الفساد موجود في رأيه مع الحياة منذ وجدت الحياة !

وقد تفتحت نفسه بهذا الحظ الوافر المكتسب من الثقافة ، وعرف به حقه ، حق وجوده وآدميته ، فآلمه ان يجد ما يجد من فوارق لا مبرر لها فيما يعلم ولا منطق .

واضطرته الحاجة أن يكون انساناً يأكل بكد اليمين وعرق الجبين ، فهو يكدح ويشقى ليظفر من عمله اللاغب بثمن الخبز ، ثم انتهت به الى ان يصبح موظفاً صغيراً بسيطاً ، براتب تافه هزيل ، يلتمس الكفية من طريقه !!

ومضت به الحياة لا تعبأ ، وتزيده ظلماً ونكداً ، وعسفاً وبغياً ، ليزيدها عملاً وجهداً ، وكرهاً وحقداً ، حتى أتعبته وما أتعبها ، وأشبعته وما أشبعها !

وكان على كل ما يحمل فوق كتفيه الصغيرتين الواهنتين من أثقال وأعباء ، فيه طيب وخير ، سريع الغضب ، سريع الرضى ، فما يكاد يعبس ويتجهم كلما أثاره حادث حتى يفيء الى شيء من بلادة الاحساس المكتسبة مع الزمن والألم فيرضى .

وكان كريماً ينفق ما في الجيب مؤمناً بالمثل ، دون ان يأتيه شيء من هذا الغيب الكز ، المقبوض اليد عنه في قسوة مصممة ! فكان بهذا كثير الاستقراض ، فاستنزف الدين موردة ، وأصاره الى ضنوكة ، وكان لا يبقى له في آخر كل شهر الا شوية يسيرة لا تسد ثقب حاجة !

ولم يكن له في حياته الشقية البائسة هذه ، من يعينه بكلمة ، أو يخفف عنه ببسمة . فلم تكن له ام ، أو كانت له ام فقد وجودها الحلو ، ولم يفقد ذكراها المشوبة بالمرارة . وكان كثيراً ما يحس بحاجة ملحة جارفة الى صدرها الحار ، يسند رأسه الكئيب اليه ، ويدها اللينة تمسح على وجهه بحنانها ورحمتها ، كلما أطبق عليه الالم ، وتكاءدته عقبات الدروب ، فتغلبه دمعة حارة ، تصعد الى عينه مالحة محرقة .

وكان له أب مرزوء يستحق المرثية حقاً ، فلم يكن خيراً منه حظاً في الحياة ، بل لعله أسوأ ، وأشد كلوحا ، ولعله ورث عنه فيما ورث هذا الحظ !

حتى الحظ يرثه الابناء عن الآباء ؟!

مضت به الحياة على هذا ، تزيده ويزيدها ، وتوسعه ويوسعها وتتعبه وما يتعبها ، ويبذل الجهد كبيراً فوق طاقة شبابه الغريض ، حتى كان يومٌ تعرّف فيه برفيق .

ولم يكن بينهما رابطة سوى مشابه من الحرمان ، فقد كان

رفيق على جانب من ثراء حديث ورثه عن ابيه أيضاً ! ولكن علاقته به نشأت مما استقر في نفس صديقه الوارث من شعور بالتفاهة ، فقد عاش حياته محروماً مقتراً عليه في كل شيء ، بين أبٍ قاس ، وجارية سيطرت عليه بعد وفاة امه فنزلت منزلتها وصارت سيدة البيت المطاعة واصبح لها من بعد خدم ! فكان رفيق بهذا ثرياً ولا يحمل نفسية طبقته ، أولم يكن قد حملها بعد، حين عرفه ، ومن هنا نشأت الرابطة بينهما .

ودعاه رفيق مرة الى بيته ، فقد كانت معرفتهما لا تتعدى حدود المقهى يلتقيان فيه على موعد ، وعلى غير موعد ، فلبى الدعوة ، وكان ذلك اليوم نقطة التحول في حياته البليدة .. وليته لم يكن !

كان بيت رفيق كثير الفراش ، مترفع الرواء ، فلما عاد الى بيته في المساء ، ودخل غرفته الفقيرة ، راعه ان وجدها غريبة عنه ، جديدة عليه ! لقد تفتحت عيناه فهو يراها الآن ، وكأنها قطعة من الشارع الأصلع ، مقفرة مجدبة ، ليس فيها ما يشعره انها عشه الذي يأوي اليه ويقضي اكثر ساعاته فيه .

وانحط كومة من الألم البليد على كرسي من الخشب، يميد ويتخلع ، يفكر في حياته هذه التي كتبت عليه ان يعيشها حيواناً غليظاً خانعاً، مع فارق ، فان الحيوان يجد من يعلفه ويسقيه شبعاً ورياً ، اما هو فعليه ان يكدح ويشقى في سبيل علفه وشرابه دون الشبع والري ، او بهما في اقل شرط وأدنى مستوى .

وبدت له حياته الفقيرة ، المعدومة الفرص والامكانيات ، صورة ناقصة لم تتم ، وضع خطوطها رسام نزق لم يؤاته الصبر على اكمالها ، فعبث بها، وتركها خطوطاً تشير الى صورة وليست بصورة ، كما يشير هو الى انسان وليس بانسان !!

وتساءل : لماذا وُجد في هذه الحياة ؟ انه يعيش لأن الموت ليس في مستطاعه أو ملك يديه ، ولو استطاعه او ملكه واندفعت أمام عينيه فكرة وليدة مباغتة : انه يملك ان يموت ! نعم الموت في مستطاعه .. فلينتحر !!

ولكنه سرعان مانفض الفكرة نفضاً من رأسه ، فالانتحار جريمة ، وهو يريد الموت لا الانتحار . يريد الموت طبيعياً ، لا يحسه ولا يشعر به ! ثم لماذا ينتحر ؟ لماذا يموت ؟ ألأنه فقير منكود ؟ ان نصف هؤلاء الناس المحيطين به ، هذا القطيع البشري ، بل تسعين في المئة منه ، مثله ، لا تربطهم بالحياة سوى صورة التمثال لم يتم المثال صنعه ولم يسوِّ خلقه .

ودار رأسه دوراناً سريعاً ، وأحس بشيء كالاعياء يؤود جفنيه ، فأطبقهما اطباقة من لا يريد ان يفتحهما ابداً .

وتدافعت موجات عكرة عاتية من الخواطر على رأسه وحسه ، وانتشر ماضيه امام عينيه بكل ما فيه من ألم جاف خشن ، اشباحاً مروعة ، كمقبرة نبشت ألحادها مرة واحدة ، وانتصب سكانها هياكل عارية :

ترى ، لماذا وجد ، وما الغاية من وجوده ؟ ولماذا يولد احدنا على طريق سهلة معبدة مفروشة بالورد ، وآخر على طريق شاقة غاصة بالمعاطب ، ولم يقدم الاول ما يستحق عليه هذا الخير الكريم، ولم يقترف الثاني مايجزى عليه هذا الجزاء اللئيم ؟

لمادا يفتح احدنا عينيه فاذا هو فوق القمة ، ويفتح الآخر عينيه فاذا هو في السفح ؛ ولم يعان الاول مشقة الصعود فيلقى، ولم تزل بالثاني القدم فيهبط السفح عجزاً ؟!

لماذا تتاح لذاك فرص الحياة ، وتفتح له ابوابها واسعة عريضة ، وتمنع عن هذا كل فرصها ، وتضيق جميع ابوابها حتى تغدو ثقوباً وشقوقاً وصيدة ؟!

لماذا هذا التفاوت ما دامت الحياة واحدة عند الاثنين ؟

لماذا يتفقان في المبدأ والنهاية ، كلاهما يجنه بطن الام ، ويغيبه بطن الارض ، ويختلفان فيما بينهما من حياة ، واحدهما يقتله الشبع ، وثانيهما يمزقه الجوع ؟

لماذا يرث بعضنا الثروة والجاه ، والحظ الأبلج كنهار أبلج ؛ ويرث بعضنا الآخر الذل والفقر ، والحظ الأسود كليل ضرير ؟

أثمة حكمة ؟ أثمة عدالة ؟ أثمة منطق ؟. انه ان يكن شيء من هذا فان عقله أعجز من ان يدركه ، ولكن هذا لا يقدم في المسألة شيئاً عنده ولا يؤخر ، وما فائدته مما لا يفهم أو يعقل ؟!

واستطرد في خواطره ، وذهب الى أبعد فأبعد معها . وتكشفت له جوانب اخرى من المهزلة : فقد بدت له الحياة سباقاً ، ولكنه خال من أبسط قواعد السباق ، فلا تكافؤ بين المتسابقين ، وهم لا ينطلقون من نقطة واحدة ، بعضهم يوضع في اول الطريق ، وبعضهم في منتصفه ، وبعضهم الاخير في منتهاه على مقربة أو ملامسة من الهدف ! ولقد تتعقد المهزلة وتزيد في ضحكها الساخر ، وهزلها المجنون ، فيوضع ذاك

المستدق المنحرف ، المصاب بالكساح في اول الطريق ،ويوضع ذاك الممتلىء صحة ، الفوار حيوية في منتهاه .. وتطلق صفارة الحكم معلنة بدء السباق أو بدء المهزلةالتي تسمى سباقاً كما تسمى حياته التي يعيشها ، حياة !

وعاد الى سؤاله الاول يلوكه من جديد ، وقد اثقله ألمه العاصف : لماذا وُجد في هذه الحياة ؟ انه لا يعيشها كما يجب ان يعيشها انسان ، ليس له فيها إلا نمو النبـــات ، كما تلقى بذرة القمح في الارض فتجنها إلى حصـــاد ، كذلك حياته ، وانه ليذكر جيداً بعد هذا انه خلق دون ان يسأل ، أو يكون له رأي في امر خلقه !

وبدا له في غمرة شعوره الجارف ، وثورته العارمة ، ان ليس امامه من منقذ سوى العمل .. نعم فليعمل عملاً اضافياً ، فليكدح في سبيل الحصول على لقمـة أدسم وأنظف ، وبيت أجمل وأفضل .

ولكن كيف يستطيع العمل وهو يعيش في جـــو هذه الغرفة الضيق ، الشديد الوطأة ، المحتبس الانفاس ، هذه الغرفة المجدبة القرعاء ، كأرض صخرية حزن لا تنبت زرعاً ولا تبسم عن زهر . ليس امامه الا ان يملأها بشيء مما تملأ به الغرف.

كان متلهفاً على الاستقرار والاطمئنان ، ظامئاً الى الامن والراحة ، متوهماً ان الوسيلة الى ذلك سرير نوم ، وراديو ، ومنضدة ، وقليل من الكتب . فقد تحطم ظهره من نومـــة الارض القاسية ، والراديو سيفتح له نافذة على العالم بكل مافيه من علم وفن وأدب ، وحوادث وأخبـار ، فيصرفه عن نفسه بعض الشيء .. ألا ما اشد حاجته الى من يصرفه عن نفسه .

ولكن من له بثمنها جميعاً ؟ انه لا يملك سوى راتبـــه الهزيل ، لا يكاد يُسكت به فماً شبعه خاطف موقوت ، وجوعه دائم ملحّ .

وهنا تمت المهزلة في نظره فصولاً . فليس مطلب فمـه ولا معدته ، دون مطلب فم ذاك المحشو بالاطايب ، ومعدتـــه المتخومة بالكظة !

وطاردته الغصة ، وشعر بشيء كالدوار ، وبرأســـه يكاد ينفجر ، واحس كمن ركبته الحمى فلها على جسده نفض وارعاد ؛ فقام وانطلق الى المقهى يغيب في ضجيجه ، فان ملازمة التفكير على هذا النحو في نفسه ، لن تنتهي به فيما يرى إلا الى الحبال .

وجلس في المقهى مع لفيف من رفاقـــه يصرف نفسه في الحديث ، عن التفكير بأمره في صمته المخيف . ولكن حظـــه النكد ، وطالعه الشؤم ، كانا أتبع له من كلب ودود ، وأعلق من علق منهوم !!

فقد كان الحديث عن الراديو !

ولمعت عيناه ببريق غريب حين انتهى الحديث إلى التقسيط. ماذا ؟ واستدار يستوضح ويسأل : هل استطيع الحصول على راديو واشيـاء اخرى بالتقسيط ؟ ولم يمض عليه يومه ذاك حتى كان قد اشترى راديو ، وسريراً ومنضدة ، دفع من ثمنها جميعاً ٧٥ ليرة استلفها من زميل له ، وأحال البائع على نهاية كل شهر يدفع له فيها من راتبه ٣٠ ليرة . واستلف مبلغاً آخر اشترى به بعض الكتب ، ومبلغاً ثالثاً قضى به حاجات اخرى .

وفرك كفيه سروراً ، وشعر كمن يقف امام مروحة رقيقة الانفاس في يوم قائظ ذي لهب ؛ وبشيء من الارتياح يداخله ويشيع في جسده جميعاً ، وتحول سواد الدنيا في عينيـه الى بياض ، وانفتحت له نوافذ الأمل العريض يطل منها على الجانب الأخضر من الحياة . اليوم هو مولده الحقيقي ، اما تلك الايام البليدة التي تقضت فليست من عمره في حساب ، وبدا له ماضيه كلطخة من طين قذر ، في ثوب أبيض نقي البياض ، هو مستقبل ايامه المشرقة .

ومضى الشهر فسدد قسماً يسيراً من دينه المقسط ، ولكنه استلف على الشهر التالي !. وجاء شهر آخر فسدد قسماً اقل ، واعتذر للدائن ، ووعده بسداد ما تأخر مع قسط الشهر القادم. وجاء الشهر الثالث فلم يستطع الوفاء ! وبدأ يطالبـه اصحاب الديون الاخرى ، زملاؤه ورفاقه ، وكان يعتذر لهذا وذاك ، ويحيل الواحد على الراتب في نهاية الشهر ، والثاني على مبلـغ آخر يزعم ان سيجيئه ، والثالث على دين له في عنق احـــد الناس .. وهكذا !.

وعاد للدنيا سوادها ، ولكنه اليوم سواد مرهق ثقيل جثم على صدره كما يجثم كابوس مزعج .

وبدأ يتهرب ، وبرع في التهرب ، فهو يذهب الى عمـــله ويسعى في مناكبها كالمعتاد ، ولكنه لا يسلك إلا المناكب المتعرجة الملتوية ، تحاشياً للقـــاء اصحاب الديون . وكان كثير اليقظة ، كثير الانتباه ، ولكنه مع حرصه ويقظته كان لا بد له من ان يفاجأ بأحـد الدائنين يبرز له ، كأن الارض قد انشقت عنه ، فيمسك به الدائن مطالباً ، وكعادته — كما

صارت عادته — كانت تحضره الكذبة المنقذة ، عفو الخاطر ووحي الساعة ، ويواتيه الخيال ، فهو ناسٍ مرة ، ومسافراً كان مرة ، وواعد بالوفاء اليوم أو غداً على أبعد حد ، مرة . وكان يرفقها جميعاً بابتسامة وبضع كلمات اعتذار تسيل رقة ، وتخجل الدائن ، فيصبر على مضض ظاهر وكره ملحوظ ، وهو لو استطاع لأنشب مخالبه في عنقه .

وتأخر عن وفاء دينه المقسط اربعة أشهر ، وكان يحيله في كل شهر إلى الشهر الذي يليه ، ثم كان ما لا بد له ان يكون ، وجاءت اللحظة الحاسمة التي هو فيها . فقد أنذره بسداد دينه في ثلاثة ايام ، مضى منها يومان وهو حائر ، ولم يبق امامه سوى يوم واحد ..

فما العمل ؟

لقد عاد إلى سؤاله الاول الذي تهرب منه . لا حيلة ولا مناص . لن تنقذه الذكريات أو الحيرة ، فليعمل ، فليواجه الواقع .

ولكن .. ما العمل ؟ ما العمل ؟ ما الحل ؟

ودار رأسه ، ومن جديد أحس بشيء كنفض الحمى ، وتمنى لو أن البطن الذي حمله كان قد ثكله .

ليس أمامه إلا ان يستدين . ولكن من يعطيه ؟! لم يترك صديقاً يعرفه ، ويعرف حقه عليه إلا واقترض منه ! لقد تورط بالدين وأصبح كمن ساخ في وحل عميق فهو يجهد للنجاة وكأنما هو يجهد للهلاك . أصبح كالغريق يغوص ويطفو ، وهو يشرق ويدفع ..

وفجأة ، وعفواً ، ذكر « رفيق » ، صديقه الوارث الطيب . ليس غيره لها . فليأخذ منه سداد دينه . لن يؤذيه مبلغ بسيط ينجده به . عجيبة كيف أنسيه هذه الفترة كلها .

وقام يقصد « رفيق » ، غير أنه بدأ وقد ذهب عنه لمع المفاجأة يفكر : كيف يطلب من رفيق ؟ إنه لموقف سيء حقاً .. ولكن لئن لم يطلب فلن يكون الموقف خيراً منه الآن بل هو أسوأ .

ومضى في طريقه .. وما إن وصل البيت وهمّ بقرع الجرس حتى لمعت في ذهنه خاطرة جديدة : هل يعطيه رفيق ؟! ثم أن الحاجة مذلة ، فهل يقدم ؟ إن قرع أبواب الناس شيء هين ، ولكنه قد يغدو وصعود درج المشنقة أعز منه وأسهل . وأرخى يده قبل أن يضغط زر الجرس . لا ، إنه لن يطلب . إنه لن يذل نفسه أكثر مما اضطر ففعل . وتحول عن البيت ، وابتعد في الطريق .

ولكن ماذا يعمل ؟ كيف يحل هذه المشكلة الآخذة بخنقه ؟ صحيح أن الحاجة ذل ، ولكن هل يعتبر الاعتماد على الأصدقاء ذلاً أيضاً ؟ ولئن لم يكن الصديق لصديقه وقت عسره وشدته وضيقه فمتى يكون ؟ ولماذا الصداقة إذا لم تتقدمها التضحية ؟

واستراح بعض الشيء إلى هذه المناقشة ، فقفل عائداً ، وهو يقتلع خطاه المترددة الواجفة من الأرض اقتلاعاً ، ورفع يده فضغط زر الجرس هذه المرة بسرعة لئلا يعرض له ما يثنيه من جديد ، وفتح له الباب رفيق بنفسه ، فرحب به وحياه .. وتبعه هو مضيفه واجف القلب جزعه وهو يتساءل : ماذا يحدث لو اعتذر رفيق ؟ إنه يكون قد أذل نفسه ، ولم تحل مشكلته . ولكنه بجرأة المستيئس قال وقد اقتعد كرسيه العريض الوثير : أتعلم ما جاء بي اليك يا رفيق ؟ قال رفيق وهو يبتسم ابتسامة مقتصدة : خير . قال : إنه القرش جلت قدرته . وروى له القصة كاملة ، وطلب منه أن ينجده بثلاثمائة ليرة . ولكنه لمح أو خيل اليه أنه قد لمح ، على وجه رفيق كمدة ووجوماً فعض شفته ندماً . كان من الخير أن لا يطلب .

وانفرجت شفتا رفيق عن سؤال : دين أليس كذلك ؟ فأجابه بغير وعي : طبعاً . وسأكتب لك بها سنداً ، وأوفيكها بالتقسيط .

وقام رفيق بخطوات متثاقلة متباطئة ، فأحضر أسناداً رسمية ، وأخرج المبلغ من خزانته الخاصة المتخمة برزم من فئة المئة ليرة وهو يقول بصوت خشن : لن آخذ فائدة منك عن المبلغ . ولكن أرجو أن تعتبر الصداقة شيئاً ، والدين شيئاً آخر .

ووقع صاحبنا السند ، وقبض المبلغ وهو مطرق واجم ما يحير لفظة ، ثم نهض شاكراً بصوت كان يخرج من أعماقه قطعاً من الألم الأسود .

★

إنه يستطيع الآن وفاء دينه للناس .

ولكن .. يا للسخرية اللئيمة .. لقد داوى المرض بالمرض ودفع الدَّين بالدَّين !!

حلب

نهاد القادري